مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 11 عدد: 1 السنة: 2022
ص: 164 - 176 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الإعلامية وتجلّياتها في التّراث اللّغوي العربي

Media and its Manifestations in the Arabic Linguistic Heritage

Assia Ardja[1] / آسية عرجة [1] *

Mohamed ben hadjer[2] / محمد بن حجر[2]

مخبر الدّراسات المصطلحية والمعجمية

جامعة يحي فارس المدية

Univercity Yahya Fares- Medea

ardja.assia@uni-medea.dz[1]. / ibnhadjer@gmail.com[2]

تاريخ الإرسال: 2021/06/30	تاريخ القبول: 2021/07/27	تاريخ النشر: 2022/03/02

ملخص البحث

يتناول هذا المقال موضوعًا من مواضيع اللّسانيات النّصية باعتبارها حَلَقَةً من حلقات تطوّر الدّرس اللّغوي، تركيزا على معيار أساسي من المعايير التي يُشترط توفُّرها في النّص حتّى يُعتبر نصّا، ألا وهو الإعلامية، والإعلامية في أبسط تعريف لها ما هي إلّا تلك المعلومات التي يستمدها المخاطَب من الخطاب، وبالنّظر في تراثنا اللّغوي عموما والتّراث النّحوي والبلاغي على وجه الخصوص نجد أنّ هذا المعيار حاضر في الدّرس العربي؛ إذ عَرَفَهُ عُلماؤنا وتعاملوا معه وفق خصائص العربية، وعليه فالإشكالية المطروحة: هل يمكن اعتبار تناول العرب لمفاهيم قريبة من الإعلامية بمفهومها الغربي جذورًا لها؟

وتكمن أهمّية هذه الدّراسة في اهتمامها بالجانب الإفادي للخطاب، كما تُبْرِزُ ثراء التّراث وعبقريّة علمائنا العرب وقيمة التّراث العربي، وتدفعنا من أجل البحث فيه ليس بإسقاط ما أفرزته الدّراسات الحديثة على التّراث، وإنّما بدراسة التّراث من أجل التّراث وانطلاقا من التّراث.

الكلمات المفتاح: إعلاميّة، تراث نحوي، تراث بلاغي، علم مخاطب، بيان.

Abstract :

This article deals with one of the topics of textual linguistics as one of the episodes of the development of the linguistic lesson focusing on a basic criterion that is required to be available in the text in order for it to be considered a text, which is the media, and the media in its simplest definition is only that information that the addressee derives from the discourse Looking at our linguistic heritage in general and the grammatical and rhetorical heritage in particular, we find that this criterion is present in the Arabic lesson; As our scholars knew it and dealt with it according to

* أسية عرجة. ardja.assia@uni-medea.dz.

the characteristics of Arabic, and accordingly, the problem is: Is it possible to consider the Arabs' approach to concepts close to the media in its Western concept as its roots? The importance of this study lies in its interest in the informative aspect of the discourse, as it highlights the richness of heritage, the genius of our Arab scholars, and the value of the Arab heritage.

Keywords : Informative, grammatical heritage, rhetorical heritage, speech science, statement.

مقدّمة:

لا يمكن أن يختلف اثنان حول فكرة نضوج الفكر اللّغوي العربي في أوانه، بفضل علماء استطاعوا أن يتناولوا الظّاهرة اللّغوية من كلّ جوانبها، حتّى سبقوا عصرهم وتوصّلوا إلى نظريات ورُؤى لم يُتوصّل إليها إلّا حديثا في الجزء الغربي من الكُرة الأرضية.

ومن بين العلوم الحديثة في الدّرس اللّغوي؛ اللّسانيات النّصّية الّتي تعتبر امتدادًا لِلِسَانيات الجُمْلة، وتكفيرا عمّا وقعت فيه هذه الأخيرة من هفوات، وتجعل اللّسانيات النّصّية النّصّ مركزَ الدّراسة والبحث، وقد أقرّ أصحابها بوجوب توفّر مجموعة من المعايير الّتي تؤكّد على نصيّة النّصّ، منها ما يتعلّق بداخل النّصّ، ومنها ما يتعلّق بخارج النّصّ، من مظاهر هذه الأخيرة: الإعلاميّة. وقد جعلنا منها موضوعا لدراستنا وكشفنا عن وجودها في التّراث اللغوي العربي بوجهيه النّحوي والبلاغي، على أنّنا نُقِرُّ بأنّنا لم نقم بعملية إسقاط وإنّما استقراء من أجل الإبانة عن وجود جذور لهذه الأخيرة في تراثنا العربيّ.

أوّلا: مفاهيم وأسس الإعلاميّة

1- مفهوم الإعلاميّة:

تتعلّق الإعلاميّة بجانب الجدّة والتّنوع المتعلّق بالنّصّ، وإن كانت في أبسط تعريف لها ما هي إلّا تلك المعلومات المختلفة، والّتي يجنيها المخاطب من الخطاب. وتعتبر الإعلاميّة من المعايير النّصّية التي اشترط توفرّها في النّصّ، ليحكم على نصّيّته، ويقصد بالإعلاميّة: المعلومات الّتي يجنيها المخاطَب من الخطاب الملْقَى عليه، وتُعرّف من طرف أهل الاختصاص بأنّها: العامل المؤثّر بالنّسبة لعدم الجزم في الحُكْم على الوقائع النّصّية، أو الوقائع في عالم نصّيّ في مقابلة البدائل الممكنة[1].

إذن فالإعلاميّة تهتمّ بالنّصّ من ناحيتي إنتاجه وتلقّيه، وتعنى بناحية الجدّة وعدم التّوقّع، وعليه فلكلّ نصّ مهما كان إعلاميّة تتحدّد وفق المتلقّي، الّذي بواسطته تحدّد هذه المعلومات.

فالغاية الأولى التي يسعى إليها المتكلّم هي إفادة المخاطَب بمعلومات ما، سواء كانت متوقّعة لديه، أو غير متوقّعة، فإذا كانت هذه المعلومات متوقّعة فالإعلاميّة هاهنا تكون منخفضة، أمّا إذا كانت مجهولة غير متوقعة من طرفه، فالإعلامية تكون مرتفعة هاهنا. ومع ذلك تبقى ثقافة المتلقّي ومدى اطّلاعه هي العامل المؤثّر على درجات الإعلاميّة.

والإعلاميّة في الفكر الحديث لم تَعُدْ تعنى بجانب المعلومات المستقاة في سياق الخطاب، وإنّما تخصّصت أكثر لتُعْنى بمفهوم أضيق يتمثّل في جانب الجدّة والتّنوّع، إنّها تتعلّق أكثر بما يمكن أن يصطلح عليه بمفاجأة المتلقّي.

وإذا كان للإعلامية درجة معيّنة تتحدّد وفقا للمتلقّي ومعرفته من عدمها للمعلومات المتضمّنة في الخطاب، فإنّنا نجد أنفسنا أمام درجات ثلاث للإعلاميّة، تتفاوت نسبها من نصّ لآخر، ومن متلقٍّ لآخر، وهي:

2- درجات الإعلاميّة:

2-1- إعلاميّة من الدّرجة الأولى:

تتحقّق كفاءة إعلامية من المرتبة الأولى في العوالم الواقعية: إذ توجد بدائل كثيرة، ويَحْدُثُ ذلك عند اختيار بديل من الدّرجة العليا من الاحتمال[2]؛ أي أنّ المخاطَب في هذا الموضع يكون مستوعبا للوقائع المحيطة به، ممّا يجعله أقلّ اهتماما بما يُلْقَى عليه، أين تتوافق احتمالاته مع الوقائع النّصّيّة.

2-2- إعلاميّة من الدّرجة الثّانية:

عند تجاوز حالات الغياب النّصّ أو التّفضيلات، أي عندما تكون الوقائع دون منطقة الاحتمال العُليا، فالنّتيجة وجود إعلاميّة من الدّرجة الثّانية[3]. هي درجة متوسّطة بين الحدّين الأعلى والأسفل، تتوافق فيها بعض احتمالات المتلقّي مع الوقائع النّصّيّة، ويختلف البعض الآخر.

2-3- إعلاميّة من الدّرجة الثّالثة:

وتتحقّق في النّصّوص صعبة الصّياغة والمثيرة للجدل الحادّ[4]، فالإعلاميّة ترتفع وتعلو كلّما ابتعد المتلقّي عن العناصر المتوقّعة في الخطاب.

إذن كلما كان توقع المتلقي غير متوافق أو أقلّ ممّا يحتويه الخطاب، بلغت الإعلامية الذُّرْوَة.

3- مراتب رفع الإعلاميّة:

يقصد بها الآليات والطّرق التي يستعملها المخاطِب من أجل جعل نصّه أكثر تشويقا من خلال اعتماده على طرق تجعل المعلومات التي يحتويها خطابُه غير متوقّعة ولا معروفة عند المتلقّي.

وقد ذكر ديبوجراند ودروسلر ثلاث آليات لرفع الكفاءة الإعلاميّة، وهي:

3-1 **الانقطاعات**؛ أين تكون الموادّ مفقودة من بينية نصّيّة، أي هناك نقصٌ في المعلومات.

3-2 **الفجوات** والرّاجح أنّه يقصد بها هنا الحذف.

3-3 **التّناقضات** حيث تكون أنماط المعلومات الواردة غير مطابقة ولا متوافقة مع المعلومات التي سبق وأن اكتسبها المتلقّي.

لكن السّؤال الذي يبقى مطروحا ههنا هل كان اللّغويون الغرب أثناء اقتراحهم لهذه الآليّات على يقين بأنّ الغاية الأساسية من الخطاب إنّما تكمن في الإفادة؛ أي إكساب المتلقّي معلومات جديدة، لكن لما يكون في النّصّ فجوات وانقطاعات وتناقضات؛ أنّى يحدث ذلك؟

4- آليات خفض الإعلاميّة:

كما أنّ المخاطِب يلجأ إلى طرق لرفع درجة الإعلامية، يلجأ المتلقّي هو الآخر -باعتباره عُنْصُرا رئيسًا من عناصر الخطاب- إلى آليات من أجل خفض درجات الإعلامية، وقد حدّدها العلماء وهي كالآتي:

4-1 التخفيض الرّجوعي أو الخلفي: ويتم بالعودة إلى الوراء داخل النّصّ، لتحديد ما إذا كان العنصر غير الواضح يفسره عنصر سابق.

4-2 التخفيض التقدمي أو الرجوعي: ويتم من خلال التّقدّم في النّص لمعرفة التطورات اللّاحقة في النّصّ، لتحديد ما إذا كان العنصر المعقّد يوضّحه عنصر لاحق.

4-3 التّخفيض الخروجي: ويتم باستخدام الذّاكرة باستذكار حالات مشابهة أو العودة للاعتماد على المعرفة بالعام، لتحديد ما قد يفسّر العُنْصُر المعقّد.

وقد ذكرت الدّكتورة زهراء البرقعاوي أنّ العلماء العرب قد وقفوا على طبيعة خفض الإعلاميّة دون أن يخصّصوا لذلك مُسَمّيات تعبّر عنها، ومستدلّة بتفسير ابن الأثير لقوله تعالى: (والتّين والزّيتون)، فاللّفظتان قد يفهم منهما الشّجر المعروف، إلّا أنّ الخفض الأماميّ المتمثّل في قوله، وذلك باعتماد العُنصر اللّاحق والمتمثّل في قوله تعالى: (وطور سينين) يرجّح أنّ المراد بهما جبلان للمناسبة بينهما[5].

5_ مصادر التّوقّعات:

حتّى يستطيع المتلقّي أن يخفض من الكفاءة الإعلاميّة حتّى يستسيغ المعلومات فإنّه يعتمد على جُمْلَةٍ من المصادر الّتي تساعده في تحقيق تلك الغاية، ومصادر التّوقّعات كما حدّدها بوجراند ودروسلر عبارة عن معلومات مختزنة وتجارب وقائعية تجعل النّاس يرون العالم بطريقة معينة[6].

ومن مصادر التوقعات:

1- المعلومات المختزنة المستمدّة في العالم الواقعيّ: ذلك أنّ الأسباب المسبّبات، فالشّيء لا يمكن أن يكون صحيحا وخاطئا معًا، أو موجودا و غير موجودٍ، كما أنّ أيّ معرفة قديمة تُبْنَى عليها المعارف الجديدة، وعليه فالعالم الواقعي هو المصدر الأوّل للتّوقّعات[7].

2- التّنظيم الخاصّ للغة: ويظهر ذلك من خلال توقّع المتلقّي اتّجاه العناصر اللّغوية، كتوقعهم لرصف العناصر والتّرابط الفهمي، وتعتمد هذه المكتسبات في المواقف الّتي تستدعي تنبؤا، فلا يتوقّع مثلا مستعملو اللّغة الإنجليزية مجموعات من الأصوات السّواكن لا تُنطق، فإذا طُلِب منهم قراءتها بصوت عالٍ لا يحاولون نطق السّطر جميعه كما لو كان وحدة واحدة[8].

3- نوع النّصّ: فالتّوقّع مثلا يختلف اختلافا كبيرًا في الشّعر الحديث عنه في التّقارير العِلْميّة، فالعوالم القصصية تختلف ونجد فيها حُرّية وإن لم تكن حُرّية مُطْلَقَة[9].

4- والنّوع الأخير للتّوقّعات هو ما ينشأ عن الموقف المباشر، عند حدوث النّصّ أو عند استعماله[10].

وبإلقاء نظرة خاطفة في التّراث العربي يمكن أن نستجلي اهتماما كبيرا بمصادر التّوقّعات، وذلك من خلال تلاقي هذه المصادر مع تلك الشّروط التي وضعها علماء القرآن، والنّقّاد، فقد أشير مثلا إلى خمسة عشر علما يحتاجها علم التّفسير كاللّغة، والتّصريف، والنّحو، والمعاني والبيان، والاشتقاق، والبيان، والبديع، وعلم القراءات، لأنه يعرف به كيفية النّطق بالقرآن[11].

ثانيا: تجلّيات الإعلامية في التّراث اللّغوي العربي: يعد التّراث العربي نتاجا ضخما لا يمكن الإلمام به، وسنقتصر في هذه الدّراسة على البحث عن أصول الإعلامية في التُّرَاثَين النّحوي والبلاغي.

1- تجلّيات الإعلامية في التّراث النّحوي:

يقصد بالتّراث النّحوي ما تشكّل من خلال فترة زمنيّة في الماضي من نظرياتٍ وأفكار في علم النّحو. وقد أشاد الحاجّ صالح أيّما إشادة بالتّراث اللّغوي العربي، إذ قال: " والّذي نقصده من التّراث اللّغوي

العلميّ هو ما تركه لنا العُلَمَاء العرب القُدَامى من أعمال جليلة انطلقت كما هو معروف من دراسة القرآن للحفاظ على لغته وذلك بطريقة علمية وهو الاستقراء للنّصّ القرآني واختراع نظام من الإعجام والنّقط لتصحيح القراءة وظهر هذان العملان معًا"[12].

وبالبحث عن جذور للإعلامية في التّراث النّحوي، فإنّنا نلمس اعتناءً شديدا من النّحاة الأوائل بالمخاطب باعتباره قطبا رئيسيا من أقطاب الخطاب، والنّحو العربي لم يكن نحوًا صوريّا يعتمد على الملاحظة فحسب، بل كان نحوا إجرائيا ينطلق من الواقع الاستعمالي للّغة، فالفضل الكبير الذي امتاز به النّحاة العرب (الأوّلون خاصّة) هو في تناولهم للكلام لا كنصّ مجرّد بل بكلّ ما يحيط به عند حدوثه من أحوال وظُرُوف، وكذلك الأحوال الّتي سبقت حدوثه وبقيت مسجّلة في ذاكرتهم ممّا يمكن أن تُعْتَبَر أسبابًا لتحصيله. فالنّص هو، في الحقيقة، جانب واحد ممّا يحصل في التّخاطب وإن كان هو الأهمّ[13]، وتتجلّى فكرة الإعلامية بوضوح فيما اصطلح عليه النحاة العرب بعلم المخاطب، بل الّذي اتّضح للنّحوي العربي- لأوّل مرّة في تاريخ العلم- أنّ عددا من الألفاظ الموجودة في كلّ لغة لا يمكن أن يفهم مدلولها في ذاتها بل لا بدّ من الرّجوع لفهمها إلى أدلّة أخرى غير لفظية. فمن جملة هذه الأدلّة يذكر النّحاة دلالة الحال ثمّ استدلال المخاطب ممّا يسمعه وكلّ ما هو في ذاكرته من المعلومات والتّجارب. ويشير سيبويه إليه كثيرا وهو عنده" علم المخاطب"[14].

ويعرّف الدّكتور عبد الرحمان الحاج صالح- رحمه الله- علم المخاطب بأنّه: « هو كُلّ ما يعلمه المخاطب ممّا يساعده على فهم الخطاب، وكلّ علم تحصّل عليه من عهد قريب أو بعيد، وهو أيضا كالمعلومات العامّة -البديهية منها والمكتسبة- التي تحصّل عليها منذ نشأته بالتّجربة وكلّ ما يستنتجه من هذه البديهيات بالنّسبة لمضمون الخطاب...

ثم إنّ علم المخاطب هو أيضا علمه بمواضع الكلم في الكلام؛ فهو علمه بحدود الكلام ومواقع عناصره وهم مما اكتسبه ويدخل في ملكته اللّسانية وهو علمه غير النّظري باللّغة وكيفية استعمالها ودرجة إجادتها...» [15].

كما أنّ العرب قد تبيّنوا وبوضوح فكرة الإعلامية بدرجاتها، وهذا ما توصّل إليه الحاج صالح وقال به:" ((ومن ذلك أيضا ما سبق أن لاحظناه أنّ للكلام مضمونين اثنين: مضمون دلالي ومضمون إعلامي أو إفادي. وفقدان أحدهما لا يؤثر في المضمون الآخر أبدا، إلّا في حالة المحال من الكلام فلا يمكن أن يفيد، ويترتّب على ذلك ما يلي:

إنّ الفائدة عند النّحاة العرب قابلة للتّكميم: فهي إيجابية أو مساوية للصّفر وبينهما درجات: المخبر ليس له علم تماما عن الحادث وقد يكون فيه شكّ فإعلامه عن ذلك إيجابي أو له علم بذلك فإعلامه لَغْوٌ كما قال النحاة...)) [16].

كما أنّ اهتمام النّحاة العرب الأوائل بعلم المخاطب أو بالإعلامية، لم يكن مجرّد اهتمام سطحي بل كان اهتماما من واقع الاستعمال إذ عمدوا إلى مراعاته في شتّى حالات الخطاب، يقول مسعود صحراوي مشيدا بصنيع النّحاة العرب في هذا المجال قائلا: "ولعلّ من مظاهر العبقرية عند بعضهم أنّهم لم يفهموا من اللّغة أنّها منظومة من القواعد المجرّدة حسب، وإنّما فهموا منها أيضا أنّها لفظ معيّن، في مقام معيّن، لأداء غرض تواصلي بلاغي معيّن؛ ولذلك جعلوا من أهداف الدّراسة النحوية إفادة المخاطب معنى الخطاب وإيصال رسالة إبلاغية إليه" [17].

ولم يتوقف النّحاة العرب عند مجرّد لفت الانتباه لفكرة علم المخاطب، ومراعاتها في الخطابات؛ بل راحوا يوظفون علم المخاطب وما اكتسب من معلومات في مواقف سابقة، ليستفيد منها في مواقف أخرى واعتمدوه- نقصد علم المخاطب- في توجيه عدّة مسائل وقضايا نحوية، أو ما يعتري الخطاب من عدول وانحرافات.

بل وحتّى في تحديدهم لمفهوم الكلام والجملة، كان الشّرط الرّئيسي فيها هو الإفادة، فالكلام عند العرب وَرَدَ على ثلاثة معانٍ [18]:

1- الكلام بمعنى اللّسان، كقولنا كلام طيء مثلا أي لسان طيء.

2- الكلام بمعنى الخطاب.

3- الكلام بمعنى الجملة المفيدة.

ومن بين القضايا التي اعتمدوا على علم المخاطَب في تأويلها، مسألتي الحذف والإضمار، جاء على لسان ابن السّرّاج:« والمحذوفات في كلامهم كثيرة، والاختصار في كلام الفصحاء كثير موجود إذا آنسوا بعلم المخاطَب ما يعنون» [19].

كما قال سيبويه في صدد حديثه عن الإضمار ومواطنه: وإنّما أضمروا ما كان يقع مُظهرا استخفافا، ولأن المخاطب يعلم ما يعني فجرى بمنزلة المثل، كما تقول: لا عليك، وقد عرف المخاطَبُ ما تعني، أ،هـ لا بأس عليك...." [20].

وإذا كان النّحاة الأوائل على يقين بموضع وقيمة المخاطَب وعلمه في تأصيل القاعدة النحوية ومن ثمّ تأويل وتفسير ما يشوب الكلام من حذف وإضمار، وتقديم وتأخير في ضوء علم المخاطب، فإنّ النّحاة المتأخّرين حتّى هم على دراية ووعي كبيرين بمكانة هذا الأخير ودوره في التّقعيد النّحوي.

فها هو السّيوطي يقول تثمينا لمكانة علم المخاطب في الدّرس اللّغوي العربي: «إنّ صناعة النّحو قد تكون فيها الألفاظ مطابقة للمعاني، وقد تكون مخالفة لها إذا فهم السّامع المراد، فيقع الإسناد في اللّفظ إلى شيء آخر وهو في المعنى »[21].

ولعلم المخاطب كينونة وحضور حتى في خلد الباحثين العرب المعاصرين، ذلك أنهم تبينوا مكانته ومدى اهتمام الأوائل به فقاموا باستحضاره وإقحامه في المسائل التي تستدعي ذلك، ذلك أن الخطاب انطلاقتُه المتكلّم ومنتهاه المخاطَب، والغرض من ذلك إفادة ذاك الأخير بمعرفة ما. وهذا ما يثبته الحاج صالح لما قال: "لقد خُلق اللّسان البشري ليبلغ الفرد لغيره ما لديه من معلومات أو أغراض وهذا لا يتمّ إلّا إذا كان المتكلّم قادرا على أن يتكلّم عن الشّيء المعيّن وغير المعيّن..."[22].

ومن الدّلائل التي تثبت فعليا أنّ الإعلامية امتداد لفكرة علم المخاطب – إن صحّ هذا الحدس– ما قاله الحاج صالح أثناء تبيينه لمدى تغيّر معنى الإعلام بعد سيبويه في اصطلاح النّحويين الذين أتوا بعده، إذ يقول– بعدما بيّن مفهوم الإعلام عند سيبويه والّذي يعدّ نفس مفهوم الإعلامية في الدّرس الحديث– : "...فالمقياس الحقيقي لكلّ علم مستفاد من الكلام هو درجة الجهل أو الشّكّ الّذي يكون عليها المخاطب إزّاء ما يحمله الكلام أيّا كان موضوع جهله والجهة من الكلام الّتي يجهلها..."[23].

إذن يقدّم الحاج صالح تعريفا من منظور آخر لعلم المخاطب متمثلا أساسا في جهل أو شكّ المخاطَب فيما يحمله الخطاب.

2– تجليات الإعلامية في التّراث البلاغي:

يمكن أن نعثر في التراث البلاغي على العديد من المفاهيم والمصطلحات، بل والعديد من التّحليلات والدّراسات التي تنمّ عن وعي البلاغيين بعلم المخاطب، أو ما يجنيه المخاطَب من الخطاب، ويبرز مفهوم الإعلامية في التراث البلاغي من خلال مستويين اثنين، هما[24]:

1– **المستوى الأوّل**: ويتحقق فيما يسمّى بالبيان أو الإفهام أو الفائدة.

2– **المستوى الثّاني**: ويتحقّق في ما يسمى بحسن البيان، أو حسن الإفهام، أو حسن الإفادة.

أمّا المستوى الأوّل فإنّه يتجلّى في ما يسمى بالحدّ الأدنى أو المنخفض من الإعلامية، في حين يتجلّى المستوى الثّاني في الحدّ الأعلى من الإعلامية.

ويقصد بالإفهام أو البيان أو الفائدة في اصطلاح أرباب الدّراسات البلاغية: أنه إحاطة اللّفظ للمعنى، وإجلاؤه عن مغزى المتكلّم[25].

ولعلّ المعنى الاصطلاحي لهذه المفردة تبيّن وتحدّد لما استخدمه الجاحظ كعنوان لكتابه البيان والتّبيين، وهو في خَلَدِه واسع المعنى، فيعرّفه بأنّه: اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضّمير حتّى يفضي السّامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أيّ جنس كان ذلك الدّليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسّامع إنّما هو الفهم والإفهام فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع[26].

لا يكتفي الجاحظ بإبراز معنى الإفهام أو البيان هاهنا فحسب بل يشير إلى فكرة أهمّ وهي أساليب الإفهام فيرى بأنّ أيّ شيء بلغت به الإفهام والفهم ذاك هو البيان، وهذه سمة من سمات العُلماء الباحثين الأوائل وهو تميّزهم ببعد النّظر، ففي الوقت الذي يعالجون فيه قضية ما يتعدّونها إلى أبعد ممّا يطلب المجتهد ويتناولونها من كلّ جوانبها، وهذا الفارق بين الدّراسات القديمة ودراسات اليوم، والفرق بين الإعلامية والبيان أو الإفهام.

وليس الجاحظ هو أوّل ولا آخر من حاول الوُصول إلى مفهوم البيان باعتباره مفهوما هامّا جدّا في علوم البلاغة، كيف لا والبلاغة أساسا مبنية على مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فقد اجتمع البلاغيون على قول واحد يتلخّص في مجمله على ضرورة أن يكون الخطاب يحمل فائدة، وطبعا هذه الفائدة هي ما يسمّى بالإعلامية سواء كانت هذه المعلومات معروفة لدى المخاطَب أو غير ذلك، فها هو أبو هلال العسكريّ يقول في هذا الشّأن مصداقا لما أقررنا: إذا كان موضوع الكلام على الإفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات النّاس، فيخاطب السّوقي بكلام السّوقة، والبدويّ بكلام البدو"[27].

يلحّ أبو هلال العسكري على ضرورة انتقاء العبارة التي نخاطب بها، فالمخاطَب هو الذي يفرض على المخاطِب طريقة الخطاب أو بعبارة أخرى: مستوى الخطاب، إذ من الضّرورة بما كان أن نخاطب النّاس حسب عقولهم، فلا نخاطب مثلا البدويّ بلغة غير لغته ولا في موضوع يفوق قدرة توقعه وإلّا فلن يكون هناك فائدة من الخطاب ولا تحقّق الإعلامية.

أمّا عن مفهوم حُسن البيان فإنّه يتعلّق بالخطابات الأدبية الرّاقية، ويقصد به توخّي الطّريقة المثلى من أجل تبليغ المعلومات في حلّة راقية للمتلقي، " إنّ الخُطب الرّائعة، والأشعار الرّائقة ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأنّ الرّديء من الألفاظ يقوم مقام الجيّدة منها في الإفهام، وإنّما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته ورونق ألفاظه وجودة مطالعه وحسن مقاطعه وبديع مباديه، وغريب مبانيه، على فضل قائله وفهم منشئه"[28].

إذن يقصد بحسن الإفهام بلوغ أحسن الطّرق وتوخّي أفضل الكلمات من أجل إيصال المعلومات، ذلك أنّ الكلمة الرّديئة قد تفي بالغرض وتوصل المعلومة، لكنّ حسن الإفهام يستوجب انتقاء أجود الألفاظ لبلوغ أسمى المعاني.

ولا يمكن أن نتحدّث عن معيار من معايير النّصّية دون أن نقحم شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني، الّذي سلك سبل النّصّية وفردها بالشرح والتفصيل وفق ما تستدعيه ناصية العربية، فكان بذلك- وبشهادة جلّ الباحثين- مؤسّس اللّسانيات النّصّية العربية- فالمتأمّل في دلائله يتبيّن وبوضوح مدى إسهام هذا الأخير في أساسيات اللّسانيات النّصّية، أو بلوغه ما توصّل إليه علماء لسانيات النّصّ حديثا قبل قرون.

ودلائل معرفة هذا الأخير بالإعلامية وتوظيفها في استقصاء الظّاهرة البلاغية تكاد لا تعدّ ولا تُحصى، ذلك أنّ مفهوم الإعلامية وارد في كتاب عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز لما عرّف هذا الأخير الاستفهام وتحدّث عنه، ويرى الباحث الربيع بوجلال أنّ تعريف الاستفهام متقارب مع تعريف لسانيات النّصّ الحديثة للإعلامية، فالاستخبار عند الجرجاني هو طلب من المخاطب أن يخبرك، والإعلامية هي إضافة جديدة للسّامع، سواء طلب أم لم يطلب[29].

بل ويتجاوز الجرجاني حدّ الإعلامية إلى التّركيز على عنصر المفاجأة الّذي يُعَدّ من ركائز الإعلامية كما قال بهذا الباحث السّابق الذّكر، أو من العناصر التي ترفع الكفاءة الإعلامية، إذ يقول- نقصد الجرجاني- :" وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشّيء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام، في التّأكيد والإحكام"[30].

وقد استقصى الباحث بوجلال بروز درجات الإعلامية الثلاث في دلائل الإعجاز، فوجد لها وجودا وذكرا، فمن مثيل ما ورد على لسان الجرجاني ويمكن إدراجه في الإعلامية من الدّرجة الأولى، ما قاله الجرجاني: أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحّته، أو لما ينزل هذه المنزلة.

تفسير ذلك أنّك تقول للرّجل: (إنّما هو أخوك)، و(أنّما هو صاحبك القديم)، لا تقوله لمن يجهل ذلك، ويدفع صحّته، ولكن لمن يعلمه ويقرّ به. إلّا أنّك تريد أن تنبّهه للّذي يجب عليه من حقّ الأخ وحرمة الصّاحب. ومثله قول الآخر(الخفيف):

إنَّما أَنْت والدٌ والأبُ القَا طعُ أحْنَى من وَصِلِ الأولاَدِ

لم يرد أن يعلم كافور أنّه والد، ولا ذاك مما يحتاج كافور فيه إلى الإعلام، ولكنّه أراد أن يذكّره بالأمر المعلوم لينبني عليه استدعاء ما يوجبه كونه بمنزلة الوالد"[31].

وهكذا قد تدرّج الجرجاني من الحديث عن حالات الخطاب بالنّسبة للمخاطب وحالته، فكلمّا كان هذا الأخير خالي الذّهن ارتفعت الكفاءة الإعلامية"، والنّكتة أنّك تثبتّ في الأوّل الذي هو قولك:(زيد منطلق) فعلا لم يعلم السّامع من أصله أ،ه كان، وتثبت في الثاني الذي(هو زيد المنطلق) فعلا قد علم السّامع أنّه كان، ولكنه لم يعلمه لزيد، فأفدته ذلك"[32].

نخلص من خلال ما سبق أنّ الإعلامية بدرجاتها الثّلاث قد تجلّت وبوضوح في التّراث العربي، وباعتبار الدّرس العربي سابق للّسانيات النّصّية الغربية يمكن اعتبار هذه الإشارات جذورا لفكرة الإعلامية.

الخاتمة:

لقد أسفر البحث في غمار الإعلامية عن جُملة من النّتائج التي يمكن أن نوجزها فيما يأتي:

- الإعلامية معيار من المعايير النّصّية الواجب توفّرها في النّصّ، وإن كان ذلك بكفاءة منخفضة؛ إذ لا يُعْقَل أن يكون هناك خطاب دون معلومة أو فائدة.
- يمكن أن نستجلي وبوضوح وجود جذور لمعيار الإعلامية في التّراث العربي؛ ففي النّحو يتقاطع مفهوم الإعلامية مع ما عرف في اصطلاح النّحاة بعلم المخاطب، وفي البلاغة مع ما عرف بالبيان وحسن البيان.
- اهتمام النّحاة بعلم المخاطب، دليل قويّ على أنّ النحو العربي لم يكن نحوا صُوريا، بل كان ينظر للخطاب من الشّقّين التّركيبي والإفادي.
- التّراث اللّغوي العربي تراث غني بِدُرَر حقّ علينا نحن أبناء العربيّة أن نبحث فيه ونسخّر تلك النّظريات التي بلغ فيها أهل السّلف جهدهم من أجل تقديمها لنا على طبق من ذهب.

في الأخير، يمكننا الإقرار أنّ ما تميّز به علماؤنا الأوائل دراسة العلوم مشتركة واستخدام الأدوات جملة لخدمة اللّغة العربية، ولا ضير في ذلك هذا الأمر الذي جعل الإعلامية متناثرة في كتب التّراث العربي دونما تصنيف أو إفراد لها بباب أو كتاب.

هوامش:

[1]- روبرت ديبوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1998، ص105.

[2]- **المرجع نفسه**، ص253.

[3]- نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب: دراسة معجمية، عالم الكتب الحديث، عمان، ط1، 2009. ص89.

[4]- ينظر: روبرت ديبوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص251.

[5]- زهراء البرقعاوي، الإعلامية في الخطاب القرآني: دراسة في ضوء نظرية التواصل، ط1، 2018، ص37.

[6]- ينظر: دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص26.

[7]- ينظر: إلهام أبو غزالة، علي خليل محمد، مدخل إلى علم لغة النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1999، ص، 193_ 194.

[8]- ينظر: روبرت ديبوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص263، 264.

[9]- ينظر: المرجع نفسه، ص246.

[10]- **المرجع** نفسه، ص265.

[11]- ينظر: زهراء البرقعاوي، الإعلامية في الخطاب القرآني، دراسة في ضوء نظرية التّواصل، ص40.

[12]- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، المؤسّسة الوطنية للفنون المطبعية، الرّغاية، الجزائر، ط1، 2007، ص7.

[13]- المرجع نفسه، ص10.

[14]- **المرجع** نفسه، ص40-41.

[15]- **المرجع** نفسه، ص57.

[16]- **المرجع** نفسه، ص57. ص72.

[17]- صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص174.

[18]- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص13.

[19]- أبو بكر محمد بن سهل بن السرّاج، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط3، 1996، ج2، ص324.

[20]- عمر بن عثمان بن قنبر الجاحظ، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1988م، ج1، ص224.

[21]- جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر، تح: محمد بن عبد الله، مجمع اللغة العربية، 1986، ج3، ص173.

[22]- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص77.

[23]- نفسه، ص150.

[24]- ينظر: عبد الخالق فرحان شاهين، أصول المعايير النصية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، رسالة ماجستير، مجلس كلية الآداب، الكوفة، 2012م، ص138.

[25]- ينظر: المرجع نفسه، ص138.

[26]- الجاحظ، البيان والتبيين، ص76.

[27] - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، النثر والشعر، تحق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، 1371هـ، 1952م، ص29.

[28]- المرجع نفسه، 57-58.

[29] - ينظر: الربيع بوجلال، معايير النصية في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، مذكرة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2010م، ص96.

[30]- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004، ص132.

[31]- نفسه، 330.

[32]- نفسه، ص178.